جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثالثة
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٩٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

# الأسس الإسلامية

## في

# فكر ابن خلدون ونظرياته

طبعة مزيدة ومنقحة


دكتور مصطفى الشكعة

أستاذ الأدب والفكر الإسلامي

كلية الآداب - جامعة عين شمس


وعميدها السابق


الناشر

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ
أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

( صدق الله العظيم )

من الآية ٤ من سورة الممتحنة

## مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله حمداً كثيراً يليق بجلالة ذاته وكمال صفاته ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آله المطهرين وأصحابه الطيبين ، صلاة موحد بالله مؤمن ومحب لرسول الله وبعد ...

فحين شرعنا فى تأليف هذا الكتاب ، كان هدفنا أن نلقى مزيداً من الإيضاح على شخصية العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون وإظهار فكره مشدوداً إلى أصوله ، مرتبطاً بمنابعه ، ولم تكن هذه الأصول وتلك المنابع إلا كتاب الله وسنة رسول الله ، ذلك أن ابن خلدون واحد من علماء المسلمين ، ومن الطبيعى أن تكون مصادر فكره وروافد عطائه إسلامية فى أكثرها إن لم تكن فى جملتها ، وإنى أحمد الله أن قمنا بهذا العبء على قدر الجهد المتاح والاستطاعة المقدورة ، ونحن لانكاد نختلف مع ابن خلدون فى شيء من فكره الذى أساء فهمه بعض الدارسين من العرب والغربيين ؛ لأن معينه الذى يأخذ منه ، وحوضه الذى يصدر عنه ، هما بذاتهما الروافد التى نتوفر على الارتواء من فراتها والتزود من فيضها ، ولم يكن خلافنا مع العالم المسلم الكبير إلا فى نظرته إلى « العصبية » وبخاصة فى قوله « إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم » وقوله : « الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية » .

وعلى الرغم من أننا ناقشنا آراء ابن خلدون هذه فى بسطة من القول فى الطبعتين السابقتين فإن شيئاً بقى فى النفس لم يكن من استبقائه مطويًّا من سبيل ، ذلك الشيء هو الدولة الرستمية التى قامت فى المغرب العربى من سنة ١٦٠ إلى ٢٩٦هـ فى نفس المنطقة التى ولد فيها ابن خلدون ونشأ وترعرع ، تعلم وتولى بعض المناصب ، وقد كان

اشْتُرِطَ لقيام هذه الدولة أن يكون رءوسها مجردين من أية عصبية ، فقد كانوا من الفرس فى الوقت الذى كانت الرعية فيها من البربر .

رأينا – والأمر كذلك – أن نضم هذه الحقيقة التاريخية فى سياق الحقائق الأخرى التى سقناها فى مناقشتنا لابن خلدون فى نظريته تلك ، على أن الشيء الجدير بالتسجيل هو أن معارضتنا لرأى من آراء ابن خلدون لا ينال من قدره ، أو يحط من مكانته ، وسوف يظل فى ميدان الفكر الإسلامى العالم الجليل ، ذا القدر الكبير ، والعطاء الوفير ، والإنجازات الباهرة ، شأنه فى ذلك شأن عديدين من أقرانه علماء المسلمين ، الذين جمعتهم العصور حينا ، وفرقت بينهم الأزمان حيناً آخر ، والله سبحانه الموفق، وعليه تعالى قصد السبيل .

مصر الجديدة فى ١١ من رمضان ١٤١٢

١٥ من مارس ١٩٩٢

**مصطفى محمد الشكعة**

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة عين شمس

وأستاذ الأدب والفكر الإسلامى

## مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بكمال ذاته وجلال صفاته ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد نبى الرحمة ورسول الهدى وعلى آله وصحبه أجمعين .

إن العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون لا يزال يحتلّ مكانة مرموقة فى مجال الدراسات الإسلامية على اختلاف شعبها وتعدد تخصصاتها ، ولكنه لم يحظ بدراسات وافية من حيث كونه مفكراً مسلماً ، له منجزاته الفكرية الأصيلة تحت مظلة العقيدة الإسلامية ، مما حدا بنا إلى القيام بهذه الدراسة التى ظهرت طبعتها الأولى منذ عامين إلا قليلاً ، فكان استقبال الدارسين لها واحتفال الباحثين بها استقبالاً طيباً واحتفالاً دافئاً يتكافآن مع النهج الذى سلكناه ، والجهد الذى بذلناه ، والمضمار الذى اتبعناه ، والنتائج التى كانت ثمرة طبيعية لهذا النهج وذلك المضمار .

وها نحن بفضل من الله نقدم الطبعة الثانية من هذا البحث « الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته » وقد أضفنا إليها باباً جديداً وفصلين جديدين .

لقد قررنا فى الطبعة السابقة أن « نظرية العمران » التى اشتهر بها ابن خلدون – مثلما قرر غيرنا من الباحثين – هى عطاء جهده وابتكار فكره ، وقد قرر هو نفس ذلك فى صدر « مقدمته » . ولكن ما إن اطلعنا على « السيرة الكاملية » للطبيب الفيلسوف المصرى المسلم « ابن النفيس » التى قام على تحقيقها صديقنا العالم الجليل الأستاذ عبد المنعم محمد عمر حتى وجدنا عناصر نظرية العمران حسبما قدمها ابن خلدون مطروحة من لدن ابن النفيس طرحاً إن لم يتطابق مع نهج ابن خلدون فإنه يقترب منه اقتراب الجفن من العين ، ويتمازج معه تمازج الضياء مع مطالع الصباح ، فكان علينا أن نسجل هذه الظاهرة الخطيرة فى باب مستقل بذاته جعلناه الباب السادس ، ومن ثم فقد ازدادت أبواب الكتاب تبعاً لذلك باباً جديداً ، وصارت

عشرة بعد أن كانت تسعة ، وتغير ترتيب أبواب الكتاب تبعاً لذلك أيضاً ابتداء من الباب السادس المستحدث .

وأما الفصلان الجديدان فقد استدعت مراجعتنا للكتاب ومعايشتنا الفكرية لابن خلدون أن نستحدثهما ونضيفهما إلى هذه الطبعة الجديدة .

إن أول هذين الفصلين المستحدثين يتعلق بنظرية أعمار الدول التى هى نظرية قرآنية الأساس والمنشأ ، هذا فضلاً عن المراحل الثلاث أو الأطوار الثلاثة التى تمرّ بها الدولة نشأة وميلاداً ، ثم قوة وازدهاراً ، ثم سقوطاً وانهياراً ، وكان ابن خلدون قد استعمل مصطلح « الأجيال الثلاثة » بدلاً من المراحل أو الأطوار الثلاثة ، فصححنا المصطلح من واقع الاعتماد على النص القرآنى ، سواء فيما يتصل بأعمار الدول أو فيما يتعلق بأطوار حياتها ، وهذا الفصل جعلناه واحداً من فصول الباب الرابع الذى يحمل عنوان « نظرية العمران إسلامية الأسس والتكوين » .

والفصل المستحدث الآخر خصصناه لتطبيق بعض نظريات ابن خلدون على حياتنا المعاصرة ، وهذا الفصل يحاول أن يثبت أركان إحدى نظريات ابن خلدون فى أن « الظلم مؤذن بخراب العمران » وجعلنا مكانه الفصل الأول من الباب الأخير الذى كان قد ضم فصلين تطبيقيين حول نظرية كون « المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب » ونظرية أن « ممارسة السلطان للتجارة مضرة بالرعية وبخزانة الدولة » فصار هذا الباب يضم ثلاثة فصول بدلاً من فصلين .

تلك مستحدثات اقتضت سلامة المنهج وأمانة العرض إضافتها إلى هذه الطبعة ، نأمل أن يصيب القارئ منها فائدة جديدة وعلماً نافعاً .

كذلك ثمت تصويب حرصنا على إجرائه والتنويه به والإشارة إليه ، فقد ورد بالباب الأول من الطبعة السابقة أن قلعة ابن سلامة التى خلا فيها ابن خلدون إلى نفسه

ليكتب « المقدمة » و « التاريخ » تقع على مقربة من مدينة قسنطينة فى شرق الجزائر . وليس ذلك بالموضع الصواب ، والصواب أنها تقع فى مدينة ندرومة الحالية بولاية تلمسان بشمال غربى الجزائر على مقربة من الحدود الجزائرية المغربية .

ذلك ما أردنا التنبيه إليه فى مقدمة هذه الطبعة ، والله نسأل أن يجعل السداد سبيلنا ، والتوفيق حليفنا ، والصواب طريقنا ، والعمل لوجهه الكريم غايتنا ، إنه نعم الموفق ونعم المعين .

مصر الجديدة فى ٢٤ من صفر ١٤٠٨هـ
١٧ من أكتوبر ١٩٨٧م

**مصطفى محمد الشكعة**
**أستاذ الأدب والفكر الإسلامى**
**وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس**
**وعميد الدراسات العليا السابق بجامعة**
**الإمارات العربية المتحدة**

# هـذا الكتاب

لقد حظى ابن خلدون بقدر كبير من اهتمامات الدارسين الغربيين والعرب ، ولعل اهتمامات الدارسين الغربيين به كانت أعمق أثراً ، وأرحب أفقاً من تلك التى قام بها الدارسون العرب ، حتى إنه يندر أن تجد مستشرقاً لم يكتب شيئاً عن ابن خلدون ، متناولاً نظرية من نظرياته ، أو زاوية من زوايا فكره الرحب العميق .

غير أن القضية الهامة التى ينبغى الإشارة إليها فى هذه التقدمة هى أن عدداً غير قليل من أولئك الذين كتبوا عن ابن خلدون لم يفهموه فهماً دقيقاً ؛ لأنهم لا يعرفون العربية بالقدر الذى يتيح لهم ذلك ، فإن لغة ابن خلدون وإن بدت سهلة ، تبقى اصطلاحاته وبعض عباراته على العكس من ذلك ، حتى إننا – نحن العرب الذين عشنا فى رحاب لغتنا حياتنا بطولها وعرضها – كثيراً ما نتوقف أمام عبارة من عباراته حتى يستقيم لنا فهمها ، أو نتروّى عند بعض مصطلحاته – وما أكثرها – حتى يتم لنا استجلاء مقاصده منها .

وإنَّ فهم ابن خلدون لا يكفيه مجرد معرفة العربية ، وإنما يتحتم على دارسه لكى يفهمه أن يكون عارفاً بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وثقافة وطراز حياة ؛ لأن ابن خلدون كان نتاجاً دقيقاً لهذه العوامل مجتمعة ، ومن لم تتوفر لديه هذه المؤهلات من الدارسين الغربيين ، ثم غاب عنه أن ابن خلدون فقيه مسلم قبل أن يكون مؤرخاً أو سياسيًّا ، سقط فى أخطاء معيبة ، وتورّط فى تناقضات ظاهرة ، مثلما حدث مع توينبى – على الرغم من كونه واحداً من المؤرخين المرموقين فى العصر الحديث – ومثلما وقع لغيره على النحو الذى أوضحناه فى مكانه من هذا الكتاب .

صحيح أن عدداً من الدارسين الغربيين افتتنوا بفكر ابن خلدون لكونه فكراً جديداً عليهم ، واستخلصوا من « مقدمته » نظريات لم يعهدوها عند علمائهم ، ووقفوا على منهجه التاريخى فرأوا فيه من الإبداع والتنظير ما لم يروه عند غيره من مؤرخيهم ، ولكننا مع ذلك نرى عند هذا الفريق التناقض أكثر من التوافق ، والصدام أكثر من الالتحام ، والتباعد أكثر من التلاقى ، بسبب تلك العوامل التى لم تتوفر لديهم ، أو أنها توفرت لدى عدد منهم ولكنهم لم يولوها الاهتمام الكافى .

وإذا كان المرء ابن بيئته ، وحصاد مجتمعه ، ونتاج ثقافته ، فقد كان عبد الرحمن ابن خلدون كذلك ، وجماع ذلك كله أنه عالم من علماء المسلمين ، وفقيه من فقهاء الشريعة ، وعلم من أعلام المذهب المالكى ، ومن ثم صدر فى نظرياته جميعاً من منطلق إسلامى محض ، وهو ما لم يتنبه إليه دارسوه فى الغرب ، وأكثر دارسيه فى الشرق ، فنظرية العمران التى تعتبر أهم منجزاته الفكرية ، إسلامية جملة وتفصيلاً ، أو إسلامية المبتدأ والمنتهى حسب تعبيرنا حين تحدثنا عنها ، وحتى تلك الآراء التى لم نوافق ابن خلدون عليها مثل نظرية العصبية ، كان سبيله فى علاجها سبيلاً إسلاميًّا ، وكان الخطأ الذى نراه وقع فيه قد حدث تحت مظلة الإسلام ، فأصاب الإسلام وأخطأ ابن خلدون .

وأما نظريته التاريخية التى فَتَنَ بها الغربيين – وهى ثانى منجزاته الفكرية أهميةً– فهى تأثر مباشر بمنهج الجرح والتعديل عند علماء الحديث الشريف ..

تلك قضايا وحقائق كان التنويه بها والإشارة إليها أمرين أساسيين ونحن نسوق هذا المدخل إلى هذه الدراسة ، وأما الكتاب نفسه فقد قسمناه إلى تسعة أبواب ، جعلنا الأول منها خاصاً بدراسة ملامح شخصية ابن خلدون ، من نبوغ مبكر ، وثقافة عريضة ، وتكوين علمى مكتمل ، وتجارب سياسية وحياتية عميقة ، ثم عرجنا على مقدمته ومنهجه فيها ، ثم انتقاله إلى مصر وحياته فيها وأثرها فيه .

والباب الثانى جعلناه لعلم التاريخ كما فهمه ابن خلدون ، وأثره فى نظرية العمران

البشرى والاجتماع الإنسانى ، أوضحنا فيه الالتفاتة الذكية التى نظر ابن خلدون من خلالها إلى التاريخ ، وانتهى إلى أنه علم شريف ، وأن التاريخ بأحداثه الصادقة ، وبتخليصه من الأكاذيب والأوشاب والترهات يمثل الوعاء الكبير الذى تتجمع فيه أحداث العالم المؤدية بعد التحليل الدقيق والاستقراء الحسن إلى تشخيص المجتمع الإنسانى الذى هو فى حقيقته العمران البشرى ، وقد أوضحنا فى هذا الباب أن نجاح ابن خلدون فى نظريته التاريخية يعود الفضل فيه إلى تطبيق منهج علماء المسلمين فى علم الحديث فى نطاق ما يعرف بالجرح والتعديل .

ولقد خصصنا الباب الثالث لنظرية العمران والاجتماع الإنسانى التى ابتدعها ابن خلدون ، وتابعنا فكرهُ وخطوهُ فيها فكرةً فكرةً وخطوةً خطوةً ، ابتداء من أن الاجتماع البشرى ضرورى للعمران ، مروراً بالبدو ثم التحول إلى الحضر ، ووجوه المعاش والصنائع ، والعلم والتعليم ، ومواقع المدن ، والملك ، والعصبية ، وأعمار الدول ، وكلها تشكل عناصر أساسية فى نظرية العمران البشرى .

كان من الطبيعى وقد التقطنا فى يسر الوجه الإسلامى والعمق الدينى لنظرية العمران أن نخصص لذلك باباً مستقلاً ، فكان الباب الرابع الذى حوى عدة فصول توضح رأينا من حيث الأسس الإسلامية التى اعتمد عليها ابن خلدون وهو يقدم نظريته ، ونظام الحكم الذى رآه مناسباً للعمران ، وهو نظام الخلافة الإسلامية ، وتَبنِّيه لعناصر كتاب طاهر بن الحسين لولده حين ولاه المأمون مصر ، وهى تمثل جوهر النظام الإسلامى فى الحكم ، كما أوضحنا كيف تبنى ابن خلدون رسالة عمر إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء وجعلها الدستور الأمثل للقضاء فى مجتمع العمران البشرى ، وكيف التزم ابن خلدون بالشريعة الإسلامية التزاماً كاملاً لكى يصبح المجتمع مزدهراً آمناً سعيداً ، وأوضحنا كيف كان ابن خلدون إسلامى الخطوات فى « المقدمة » من أولها إلى آخرها ، بحيث يتحتم ألّا يكون فكره إلّا إسلاميًّا ، وهو ما لم يتنبه إليه دارسو الفكر الخلدونى من قبل إلا من زوايا ضيقة .

ومادام رأس الدولة فى العمران الخلدونى هو الإمام أو الخليفة ، فقد جعلنا الباب

الخامس موضوعاً لدراسة الإمامة عند ابن خلدون ، فتحدثنا عن المنطلق الخلدونى فى الإمامة ، وأوضحنا كيف أن الإمامة عنده وظيفة دينية سياسية اجتماعية ، كما بيّنا الصورة الفقهية الإسلامية للإمامة طبقاً لمفهومه ، ثم تحدثنا عن العصبية وشروط الإمامة من وجهة نظره ، وختمنا الباب برأى ابن خلدون فى ولاية العهد .

ولما كنا نختلف مع ابن خلدون فى نظرية العصبية وما أورده فيها من أفكار وتعليلات ، وجعلها بديلاً فى شروط الخلافة من النسب القرشى ، فقد خصصنا الباب التالى وهو الباب السادس لموضوع العصبية ، وعرضنا وجهة نظر ابن خلدون فيها ، وفتواه فى شأنهامن حيث كونها تصلح بديلاً للنسب القرشىّ ، ورأيه فى أن الخلاف بين علىّ ومعاوية كان مبعثه العصبية ، وأن الملك فى بنى أمية إنما هو نتيجة العصبية . لقد تابعنا ابن خلدون فى كل آرائه حول العصبية ، وناقشناه فيها ، وناقضناه فيما جاء به من أمثلة من التاريخ لوى أعناقها لكى يطوّعها لخدمة وجهة نظره ، وكانت مناقشاتنا ومناقضاتنا من الواقعية والبساطة بحيث جعلت النظرية مهتزة فى أكثر عناصرها مهترئة فى بعض بنيتها .

ومن عناصر الفكر الخلدونى الذى لقى كثيراً من الاهتمام ما قد ذهب إليه بعض الدارسين المعاصرين المعروفين بالإتقان من أن ابن خلدون كان عدوًّا للعرب ، كارهاً لهم ، معرّضاً بهم ، نائلاً من قدرهم ، فخصصنا الباب السابع لموضوع ابن خلدون والعرب ، وعرضنا وجهة نظر من يرون فيه عدوًّا للعرب ، كارهاً لهم ، مُعَرِّضًا بهم ، نائلاً من قدرهم ، ورأى من يرون عكس ذلك ، ثم سجلنا رؤيتنا الشخصية للموضوع من واقع النصوص والأقوال والعبارات التى جاء بها ابن خلدون ، والتى تنتهى فى نطاق الحكم السليم والفهم المعتدل إلى أن ابن خلدون كان يقصد الأعراب وليس العرب ، والفرق واضح بين هؤلاء وأولئك .

يقصد الأعراب وليس العرب ، والفرق واضح بين هؤلاء وأولئك .

وكان طبيعيًّا وقد اشتغل كثير من علماء الغرب بفكر ابن خلدون ، وأصدروا حياله أحكاماً شتى ، وبينهم العالم المدقق المنصف ، والباحث المتسرع المغرض ، أن

نعرض لهؤلاء وأولئك ، ونتابع أقوالهم ، ونناقش آراءهم ، وننبه إلى أخطاء من أخطأ بحسن نية ، ونحاسب من استغل الفرصة فأطرى ابن خلدون وشتم الإسلام والمسلمين ، فخرج بذلك عن الأمانة العلمية والمنهجية والأكاديمية ، كان طبيعيًّا أيضاً أن نشير ونشيد ببعض من التزم الحياد منهم ، واستهدف الحقيقة العلمية ، وكان هذا هو موضوع الباب الثامن .

أما وإن لابن خلدون نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية يمكن أن تطبق على مختلف الأزمنة وليس على زمانه وحده ، فقد جعلنا الباب التاسع والأخير مضماراً لتطبيق بعض هذه النظريات على عصرنا الذى نعيشه ، وبلداننا التى نسكنها ، واخترنا لذلك نظريتين هما كون المغلوب مُولَعًا بالاقتداء بالغالب ، وأن اشتغال السلطان بالتجارة مضر بالرعايا مفسد للجباية ، وكان بودنا أن نجرى تطبيقات معاصرة على عدد آخر من نظريات ابن خلدون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولكنْ كثيراً ما يغنى الجزء عن الكل ، وينوب القليل عن الكثير .

ومجمل الرأى أن أكثر نظريات ابن خلدون السياسية والاجتماعية والتاريخية انبثقت عن فكر إسلامى خالص ، ومبادئ إسلامية أصيلة ، وبنية إسلامية سليمة ، ولم يكن ذلك بمستغرب من ابن خلدون العالم الفقيه المسلم ، شأنه فى ذلك شأن من سبقوه من العلماء المسلمين المبدعين ، وهم من الكثرة بمكان ومن الوفرة بمقدار .

والله نسأل أن يلهمنا الصواب ، وأن يوفقنا للخير ، وأن يجعل جهدنا خالصاً لوجهه ، إنه نعم الموفق لصالح الأعمال .

مصر الجديدة فى ٢٧ من المحرم ١٤٠٦
١٢ من أكتوبر ١٩٨٥

**مصطفى محمد الشكعة**

**عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس**
**وعميد الدراسات العليا بجامعة الإمارات العربية**
**وأستاذ الأدب والفكر الإسلامى بكلية آداب عين شمس**